في سنة ١٩٣٢ الحالية

بقلم الشيخ سليم الدحداح

اما سنتا ١٩٣٢ الحالية يقع فيها كثير من التذكارات القرنية الشهيرة احببت ان احادث قرّاء « المشرق » الكرام عن بعضها ، مبتدئاً باحدثها عهداً لانتهي باقدمها تاريخاً .

واكتفي الآن بذكر سبعة تذكارات شهيرة متبسطاً في تلك التي لها علاقة بلبنان وبلادنا الشرقية .

***

في سنة ١٨٣٢ كان الهواء الاصفر يفتك فتكاً ذريعاً في فرنسة وممالك اوربة الغربية . فكان من جملة ضحاياه ، في ١٦ ايار من تلك السنة ، وزير فرنسة الاكبر ورجلها السياسي المحنّك كزيمير پريه الذي استحق ان يصبح اسمه بعدئذ لقب اسرة كريمة نظراً لشهرته ولاعماله المجيدة .

***

في ٢٧ ايار سنة ١٨٣٢ استسلمت مدينة عكا وحصونها الشهيرة للفاتح المصري ابرهيم باشا ، جدّ جلالة الملك فؤاد الحالي ، بعد حصار دام عدة اشهر . وهي التي كانت امتنعت على اعظم قوّاد الاجيال الاخيرة اعني بهم بونابارت . وقد احتفلت الحكومة المصرية منذ امد قريب بمرور المائة سنة على تلك الحادثة الشهيرة . وكانت نتيجة انتصار ابراهيم باشا انطلاق ايدي جيشه المحاصر ، فلحق بسائر الكتائب المصرية التي كانت توسعت في سورية ولبنان ،

وتابع افتتاحاته فدخل الاناضول وسار من نصر الى نصر حتى استولى على قونية، بعد ان اسر الصدر الاعظم رشيد باشا، ولم يتوقف عن زحفه على القسطنطينية الّا لدى مداخلة الدول الاوربية.[1]

* * *

في ٢٢ تموز من هذه السنة مضى قرن كامل على وفاة من يعرفه التاريخ واصحاب المسارح باسم «النسر الصغير» او «فرخ النسر». فانه في مثل ذلك اليوم، اي في ٢٢ تموز سنة ١٨٣٢، مات في ڤيانه مصدوراً في الحادية والعشرين من عمره ذلك الذي حياه والده حين ولادته بلقب «ملك رومية»، وهو لقب لم يحمله شخص على الارض منذ ٢٣ قرناً. مات ذلك الذي يعرفه الامبراطوريون في فرنسة باسم نابوليون الثاني، والذي عاش في النمسة باسم الدوق دي ريشتاد بعد ان قضى ١٧ عاماً بعيداً عن وطنه محروماً من الرجوع اليه.

هذا هو الامير الذي تغنى ڤيكتور هوغو وادمون روستان وغيرهما بامجاده وحوادث حياته الباسلة واعمال والده البطولية، هذا الذي يدعوه التاريخ بكل حق استياناكس الاعصر المتأخرة. مع الفرق بان والدته لم تكن لتشبه اندروماك لا بوفائها لزوجها ولا بحبها لوحيدها.

***

في ٩ تموز من هذه السنة ايضاً مضى قرنان على وفاة الراهب الحلبي اللبناني الذي صار اسقفاً على حلب وترك اسماً شهيراً في عالم الدين والآداب العربية والطائفة المارونية، اعني به المطران جرمانوس فرحات الذي مات في ٩ تموز سنة ١٧٣٢. وقد تألفت في حلب لجنة للاحتفال بتذكار وفاته[2].

* * *

في سنة ١٦٣٢ كانت سهول امارة السكس في المانية مرسحاً لواقعة عظيمة قرب مدينة لوتزن بين الجيوش البروتستانية الزاحفة بقيادة ملك السوج غوستاف ادولف، وبين الجيوش الكاثوليكية السائرة بامرة ولدستين دفاعاً عن دينها

١) اطلب مشرق هذه السنة، ص ٢٥٨، ٤٥٠، ٤٦٣

٢) اطلب مشرق هذه السنة، ص ٤٦

وذمارها ، فاسفرت عن انتصار البروتستان الا ان رئيسهم الملك غوستاف ادولف لقي حتفه فقط وهو يقول : « لغيري العالم ! »

***

وقد وصلنا الآن الى التذكارين الاخيرين ، وهما اكثر اهمية من التي ذكرناها ، احدهما جرى في سنة ٦٣٢ ، والثاني بعد مائة سنة منه اي في سنة ٧٣٢ .

عنيت باولهما ، وقد مضى عليه الآن ١٣ قرناً ، وفاة النبي الهاشمي العربي محمد صاحب الشريعة الاسلامية . فانه توفي في ٨ حزيران سنة ٦٣٢ وكان موافقاً لليوم الثاني عشر من ربيع الاول اي في مثل النهار الذي كان قد ولد فيه على الحساب القمري . توفي قبل ان تتم السنة العاشرة ، حساباً شمسياً ، لهجرته . واما بموجب الحساب القمري فان ذلك اليوم كان في الشهر الثالث من السنة الحادية عشرة للهجرة . ولا يستغرب القارئ الكريم اذا لم يجد اثراً لاي احتفال بمناسبة اكتمال الـ ١٣٠٠ سنة على مرور هذه الوفاة ، مع كثرة الملايين من البشر المنتشرين في كافة انحاء المعمور والمعتقدين بصحة رسالة النبي الهاشمي العربي ؛ وذلك لان حسابهم يختلف عن التاريخ المسيحي ، ولما كانت السنة الهجرية اقصر مدةً من السنة الشمسية فقد مضى بموجب حسابهم ١٣٤١ سنة على وفاة صاحب شريعتهم . ولهذا فاننا لا نرى في سنتنا الحاضرة اثراً لاي احتفال كان في هذا الموضوع . انما هذا الاختلاف لا يمنع ان نذكر التذكار القرني الثالث عشر في هذه السنة .

والحادث الآخر الذي عنيته سابقاً ، والذي جرى مائة سنة بعد الوفاة المذكورة ، هو المعركة التي حصلت في سنة ٧٣٢ في سهول نهر اللوار الواقعة بين مدينتي تور وپواتيه ، والمعروفة باسم معركة پواتيه .

ان الاقوام العربية التي لم تكن تعرف الترتيب من قبل والتي لم يكن لها رائد سوى الغزو والسلب ، رتبت صفوفها بعد انتصاراتها على عساكر الروم في وقائع الحدود ، وزحفت بانتظام على الممالك المجاورة . وبقليل من السنين استولت على العراق ، وسورية ، ولبنان ، والقطر المصري ، وعلى بلاد فارس . وبعد ان توقفت قليلاً عن الفتوحات بسبب ما حدث من الفتن بين علي ومعاوية ،

وبين هذا والحسن والحسين واتباعهما ، وبين خلفاء معاوية واهل المدينة ، عاد العرب الى التوغل غرباً وشرقاً في الفتوحات والحروب حتى انهم في بدء القرن الثامن (٧٠١) كانوا قد اكملوا فتح شمال افريقية تلك البلاد التي دعاها الرومان باسم نوميديا وموريتانيا ، ووصلوا الى شواطئ بحر الظلمات (الاتلانتيك) . وفي سنة ٧١١ اجتاز طارق المضيق الفاصل افريقية عن اوربة ودخل بلاد الاسبان ، فدُعي المضيق باسمه « جبل طارق » . وفي موقعة واحدة استولى على بلاد اسبانية وقضى على تلك المملكة التي كان لها ثلاثمائة سنة في المجد والاستقلال. ولم يكتفِ الفاتحون بذلك بل انهم ، بعد ان استولوا على كافة اسبانية (الّا الجبال الغربية الشمالية منها المعروفة باسم استوريا) اجتازوا جبال البرنس الشاهقة المنيعة ، وتبسطوا في سهول غالية الجنوبية المخصبة الغنية فلم تنتهِ سنة ٧٢١ حتى كان العرب قد استولوا على كل ما هو جنوبي نهر الفارون رغماً عن مقاومة اود دوق اكيتانية الباسل ، الذي اضطرّ الى طلب الصلح ورضي بان يدخل مع بلاده تحت سيادة الخليفة الاموي . وقد كان من شروط الصلح ان يُعطي احدى بناته لقائد الجيش العربي الذي اهداها سريّةً للخليفة في دمشق.

الا ان الغزاة العرب لم يكتفوا بذلك ايضاً ، فاجتازوا نهر الفارون واجتاحوا البلاد الكائنة بينه وبين نهر اللوار . فخفّ حينئذٍ امير البلاط في مملكة نوستريا ، الدوق شارل ، الى مقاتلتهم . واتى بقيادته كافة رجال الفرنك من مشاة وفرسان في مملكتي نوستريا واوسترازيا . فعسكروا شمالي سهول پواتيه ازاء جيوش الغزاة العرب . وبعد ان لبثوا عدّة ايام مرابطين بعضهم امام البعض كأنهم يجسّون نتيجة ذاك الاحتكاك حملوا حملة شديدة وتطاحن القومان ودارت سوق المنايا .

ولكن بقي كل من الجيشين مستولياً على مراكزه بدون ان يُعرف المنتصر من المغلوب . الّا انه في صباح اليوم الثاني ، عندما امر شارل جيشه بالهجوم على المعسكر العربي ، فما اشدّ ما كان استغرابه اذ وجد المعسكر فارغاً خالياً خاوياً ليس فيه احد من العرب . فان هؤلاء بعد ان فقدوا قائدهم الاكبر ، الامير عبد الرحمن الغافقي ، ورجدوا ذواتهم بعيدين عن قاعدة اعمالهم ، خافوا

القائلة ، فصمموا على التراجع للوراء. واتموا فعلاً ما نووه فانسحبوا جميعاً تحت جناح الظلام ولم يتركوا بين ايدي الفرنك اسيراً ولا جريحاً . ولم يشعر عولاء بانسحابهم . وقد بالغ مؤرخو الافرنج في خسائر اعدائهم . فرووا ان شارل احصى عدد القتلى العرب فبلغوا المائة الف . وقد لقب الفرنك قائدهم شارل بلقب « المطرقة » وعُرف في التاريخ باسم شارل مارتيل اي شارل المطرقة وهو والد پيبن القصير ، الملك الاول من سلالة ملوك فرنسة الثانية ، وجد شارل الاكبر او شارلمان الذي جدد الامبراطورية الرومانية.

اذا اعتبرنا فتوحات العرب السريعة وامتداد دولتهم في كافة اقطار المعمور بمدة قصيرة ، اذ انهم بظرف مائة سنة من بعد موت النبي العربي اخضعوا لدولة الخلافة العربية مملكة الفرس واراضي الدولة البيزنطية في آسية (ما عدا الاناضول الغربي) والقطر المصري وبلاد المغرب ومملكة الاسبان واكثر من نصف غالية فضلاً عن انهم وصلوا الى الصين والهند ، اذا اعتبرنا ذلك ذكرتنا هذه السرعة بالكلام الوارد في الكتاب المقدس في الفصل الاول من سفر المكابيين الاول عن الاسكندر المكدوني ، وهذا هو بالحرف الواحد : « ثم اثار حروباً كثيرة وفتح حصوناً متعددة وقتل ملوك الارض . واجتاز الى اقاصي الارض وسلب غنائم جمهور من الامم فسكتت الارض بين يديه . . . »

لكنّ الله قدّر وجود شارل وجيش الفرنك للوقوف امام هذا السيل الجارف .

وبالحقيقة ان انتصار شارل في پواتيه قد انقذ اوربة والتمدن المسيحي من تسلط العرب . ولولا هذا الانتصار لكانت الآن كنيسة نوتردام في باريس ، والقديس بطرس في رومية ، والڤاتيكان ، واوكسفورد ، جوامع ومدارس اسلامية . وعليه فيجدر بفرنسة ، وان فاخرت الآن بانها اكبر دولة اسلامية ، ان تحتفل الاحتفال اللائق بذكرى انتصار اجدادها في پواتيه.